

جمعية المهندسين الملكية المصرية

« تأسست فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٠ »

ومعتمدة بمرسوم ملكى بتاريخ ١١ دسمبر سنة ١٩٢٢

﴿ النشرة الثامنة عشر للسنة الخامسة ﴾

٧٠

تتمة

محاضرة

﴿ العمارة العربية بمصر فى عهد دولة المماليك البحرية ﴾

﴿ لحضرة محمود افندى علي ﴾

« القيت بجمعية المهندسين الملكية المصريه »

فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٥

الجمعية ليست مسؤلة عما جاء بهذه الصحائف من البيان والآراء

تنشر الجمعية على أعضائها هذه الصحائف للنقد وكل ما يرسل للجمعية
يجب ان يكتب بوضوح وترفق به الرسومات اللازمة بالحبر الاسود
(شيني) ويرسل برسمها صندوق البريد رقم ٧٥١ بمصر

اقتصر العمل العمارى الذى قام به السلطان قلاوون على مجموعة واحدة من البنايات ، اقامها وسط القاهرة ، ولكنها مجموعة على اعظم جانب من الاهمية . تتكون من ثلاث عمارات منفصلة هى المارستان — أو المستشفى — والتربة ، والمدرسة ، بنيت جميعها فى سنة ٦٨٣ هـ — ٨٤ (١٢٨٤ — ٠٥ م)

أما المارستان فهو الثانى من نوعه فى القاهرة بنى على نسق المارستان الاول الذى بناه صلاح الدين الايوبى فى القاهرة ايضا . ويؤخذ من تخطيط تخيلى وضعه المرحوم هرتس باشا باشمهندس الآثار الاسبق ان مارستان قلاوون كان محتويا على ثلاثة أصحن او حيشان اثنان منها محاطان بخلاو صغيرة والثالث الكبير مقامة على جوانبه الاربعة بوالك تفتح فيها حجرات جديدة . أما وسائل التحقق من صحة هذا التخيل فقد انعدمت بعد ما هدم الجانب الاكبر من هذا المارستان وأقيم بدله مستشفى قلاوون الحالى الخاص بامراض العيون .

كان هذا المارستان فى الاصل مكونا من جملة اجنحة يختص كل جناح منها بمرض من الامراض التى كانت معروفة فى ذلك العهد وكانت هناك هيئة طبية منتظمة ، وغرفة مطالعة ، ومعامل كيماوية ، وصيدلية وحمامات ومطابخ وكل معدات المستشفيات المعروفة وقتذاك. وكانت توجد جوقة موسيقية تخفف آلام المرضى ، وتهون عليهم ساعات التأوه الطويلة . وبجانب هذا خمسين قارئا يتلون من القرآن في المسجد ما فيه سلوى وتهويناً للشدة، ثم أمينا للمكتبة وخمسة إتباع

يساعدونه على مناولة الكتب الطبية والدينية وغيرها لمن يرغب فى المطالعة . وفوق هذا وذاك فقد كان هناك ستين يتيما يربون ويعلمون فى المدرسة .

ان أهم نقطة عمارية لهذا المستشفى والمبانى الملحقة به تنحصر فى تخطيطها . فقد كانت القاهرة حينذاك مزدحمة بسكانها وباشغالها . الى حد أنه كان يستعصى على كل جبار كقلاوون ان يخلى مكانا كافيا لهذه المجموعة الاثرية . ولكن على الرغم من هذا الازدحام نرى مثالا متماثلا من التخطيط المعمارى البديع . واكثر من هذا ان معمارها ـ مهما كانت هويته ـ تفوق على سابقيه ممن شيدوا المساجد قبله وجعلوا وجهاتها جرداء عابسة . ولم تقف مهارته عند حد معالجته الوجهات كعمل معين يتضمن فلسفة جمال فن التصميم ، بل اضاف الى خطوطها الطويلة منارة وقبة كونت عملاً من ابهج الاعمال الاسلامية فى الوجود . ومن ذلك العهد ابتعدت المنارة عن ان تكون أداة قائمة لمنفعة المؤذنين وحدهم كما تغير الحال وقتذاك مع قبة ناقوس الكنائس الاوروبية فلم تعد هى كذلك موئلا للاجراس وحدها .

حقاً إن هذة المئذنة اضحت مظهرا هاما للتصميم وعنصراً رأسيا طريفا في المجموعة جديرا بان يعالج بالمهارة الغريبة التى ادركها ذلك المخ الخصب الذى وهبه الله لمعمار المماليك .

كذلك كان هذا شأن القبة التى لم تقف وظيفتها عند حد مشاطرة المنارة أهم فائدتها فى البناية . بل تعدتها الى ان صارت علامة

خارجية منظورة على ضريح لرجل عظيم.

أن رقبة قبة قلاوون الحالية حديثة العهد يرجع تاريخ بنائها الى سنة ١٨٨٠ وكانت مغطاة بسقف مستو ، ولكن السقف استبدلت به قبة بنيت على طراز القباب الباقية التى عاصرت قلاوون .

ولا نزاع فى ان وجهة الضريح هى من اجمل الاشياء فى القاهرة كلها، تعيد قناطرها المقوسة المحمولة على اعمدة ذكرى العمائر الصليبية ومن بينها كنيسة القبر المقدس بالقدس الشريف اذا لم نقل رؤيا الكنائس القوطية القديمة بمدينة جنوا. أما الشبابيك المفتوحة فى تجويف الحنايا فمملوءة بالرسوم الهندسية الفاخرة . ويمنطق الوجهة باكملها طراز مشحون بآيات قرآنية وغيرها من الكتابات المثبتة لتاريخ البناء.

وأما المنارة فمكونة من ثلاثة ادوار، الاسفل والاوسط مربعان، والثالث الاعلى مستدير وأحدث من سابقيه عهداً ،لانه سقط بالزلزال عقب البناء بزمن يسير فاعاده الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٢ هـ . واذا صح ظنى يكون هـذا الجزء هو البناية الاسلامية المصريه التى توجت بكرنيش مصرى الطراز . ومع مبالغتى فى الوصف ارجو ان لا تصدقونى اذا قلت ان هذه المنارة التى بنيت باكملها من الحجر المنحوت تدانى منائر القرن التاسع الهجرى .

ان تجديد ضريح قلاوون ربما كان انجح عمل قام به مهندسو لجنة الآثار ، لانه اضحى من الداخل محتفظا برونق يقارب ما كان عليه فى عهد بانيه ، فهنالك اكتاف اربعة عظيمة واربعة ازواج من الاعمدة

الزلطية الضخمة تحمل ثمانية عقود. فوقها رقبة مثمنة تعلوها القبة التى تغطى التربة ، ولا شك ان ترتيب هذه الحوامل غير مألوف بيننا ولا بد من مقارنته بترتيب حوامل قبة الصخرة بالقدس ، حيث عمودان او ثلاثة اعمدة محصوران بين كل كتفين متواليين ، واذا عدنا الى التفاصيل الداخلية لهذه القبة نراها عديمة النظير فى القاهرة وقليلته فى دمشق او فى حلب ، فالجدران مكسية بالرخام المجردة الدقيق والمحراب مكوّن من ثلاث حطات مزينة بالفسيفساء العجيب على مثال ماكان عليه محراب الجامع الاموى بدمشق فى ايام عظمته. ونجده ومن ارضية القبة الى قمتها لا ترى الا لونا زاهراً وتذهيبا براقا وزجاجا ملوّنا باصباغ متآلفة مبهرة تنبئك بالجمال القوطى المتجلى فى الشبابيك الملونة وبالذوق السلجوقى — ذوق سوريا الشمالية — فيما عدا ذلك .

وليست القاعة الكائنة امام مدخل القبة الغربى بأقل جاذبية من القبة نفسها حتى بعد ماطمست نافورتها المتوسطة واختفت اكثرية زخارفها البديعة حولها ، ولا شيء أدعى الى العجب من الزخارف الجصية الهندسية المورقة الشكل المصنوعة باليد حول ذلك المدخل الغربى

نعم يوجد بالقاهرة نحو ٥٠٠ محلا أثريا . ولكن اذا انتصح بى سائح ان انتقى له ثلاثة من هذه الجسامات فانى اختار ابن طولون ، والازهر وقلاوون ، واذا أراد اختيار واحد من هذه الثلاثة فانى اتخير له اخرها .

يفصل القبة عن المدرسة مجاز طويل كان يؤدى الى المارستان ايضا ، فاذا ما دخلنا المدرسة استقبلنا الى اليسار الايوان الشرقى الذى عملت به اصلاحات جدية خلال سنى الحرب، ولكن ضعف الرقابة الهندسية على تنفيذ هذه الاصلاحات أدى الى خلل جسيم فى اعمدة الطارات دعى الى صلبها حفظا للارواح الى ان تتاح ازالة ذلك الخطر .

أما عن الزخارف فالابداع رائدها ، وأما عن التخطيط فالمهندس كان قصير النظر ـ اذا لم يكن جبروت قلاوون هو الذى ارغمه على ارتكاب ما وقع ـ

ذلك ان صفوف الاعمدة فى هذا الليوان ممتدة بالتعامد على جدار المحراب بدل موازاتها له ولصفوف المصلين ، وأن القسم الاوسط من الليوان اعلى سقفاً من الليوانين اللذين يكتنفانه، وكلتا الحالتين خلة التعامد وارتفاع الوسط متوفرتان فى الكنائس البيزنطية الشرقية ومن بينها الكنائس القبطية المنتشرة فى القاهرة وداخل حصن تراجان ـ أو قصر الشمع بمصر القديمة، وقد شاهدت الجمعية واحدة منها على ما أتذكر .

أما ومهندس هذه العمارة صار فى ذمة الله لا يملك دفاعا عن نفسه ، فواجب الزمالة يدعونا الى الاعتذار عنه ، اعتذارا أرجو ان يحوز رضاءكم .

قلت من لحظة إن هناك تشابها بين قبة قلاوون وبين قبة

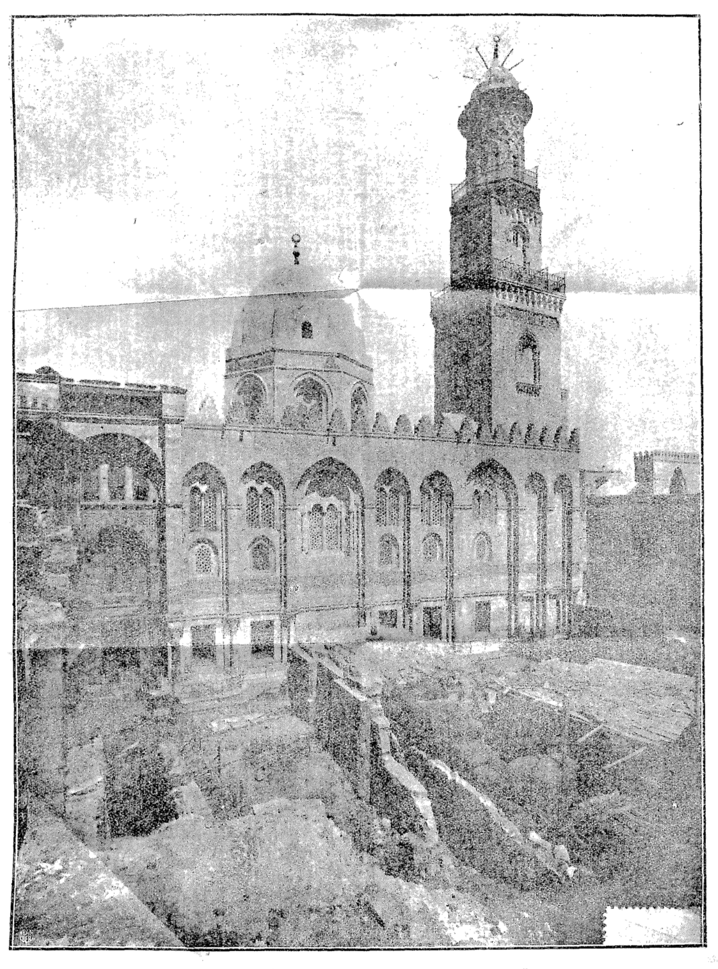
الصخرة ، وأقول الآن ان هذا التشابه موفور بين المسجد الاقصى وبين المدرسة المنصورية — مدرسة قلاوون — اذ تعامد اتجاهات صفوف الاعمدة وارتفاع سقف الجزء الاوسط حاصل فعلا في المسجد الاقصى — فلا يبعد اذن ان يكون قلاوون قد رغب فى محاكاة هذا المسجد الشريف كما قلد قبة الصخرة ، فلم يسع المهندس الا الطاعة والامتثال .

على ان التشابه بين المسجد الاقصى وبين الكنائس البيزنطية انما نتج عن ان هذا المسجد قام على انقاض كنيسة العذراء الكبيرة التى شادها يوستيان الاول الذى حكم من سنة ٥٢٧ م الى سنة ٥٦٥ م وهذا الطرز من الكنائس يحتوى دائما على صحن مرتفع مغطى بسقف جملونى ، ويكتنف الصحن عدد متماثل من الاروقة المغطاة بسقف مستو أوطأ من سقف الصحن عاده ، فلما أراد عبد الملك بن مروان الخليفة الاموى تجديد هـذا البناء على شكل مسجد استبقى معظم اجزائه فحفظت هى ايضا سحنتها البيزنطية ، وجاء قلاوون فخرجت مدرسته بالحالة التى وصفناها .

الى هنا امسك عن الكلام الى جلسة مقبلة ابدأ الحديث فيها عن عمائر الناصر محمد بن قلاوون ثالث ملوك البناء العظام ؟

محمـود احمـد

مهندس اثرى ومدير مجلة الهندسة



قبـــة ومدرســـة قلاوون بالنحاســـين

مطبعة أبي الهول بشارع محمد علي بالقاهرة
بجوار دار الكتب الخديوية لصاحبها عثمان فهمي